



# من روائع البيان النبوي

د. غالب محمد الشاويش\*

أثناء حياته أو بعد مماته من قبل الناس الذين أحسن إليهم أو الناس المحبين له بسبب إحسانه وأما المعنى الآخر وهو ما يدل على إخفاء شيء وإغماضه فهو يتناسب مع طبيعة المنفق الذي ينفق ماله خفية عن أعين الناس، متملاً في قول الرسول عليه الصلاة والسلام (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

إن النظرة المتأنيبة في الحديث النبوي الشريف تبين أنه قد استخدم الفعل (أنفق) في جانب الأصناف الثلاثة وهي:

- دينار أنفقته في سبيل الله.

- ودينار أنفقته في رغبة.

- ودينار أنفقته على أهلك.

بينما البيان النبوي استخدم الفعل تصدق في جانب صنف واحد وهو المسكين (ودينار تصدقت به على مسكين) فما السر في هذا التنوع بين الفعلين؟

إن استخدام الفعل (أنفق) مع الأصناف الثلاثة التي ذكرت في الحديث ليدل دلالة واضحة على أن الإنفاق واجب على هذه الأصناف الثلاثة. بينما (المسكين) فإن الإنفاق عليه يكون من باب التطوع ولذا حسن في البيان النبوي أن يقول (ودينار تصدقت به على مسكين) لأن الصدقة في العرف تقال للمتطوع به.

وجاء الفعل (تصدق) على وزن (تفعل) وهذه الصيغة من معانيها أنها تأتي للعمل المتكرر في مهلة فالصيغة هذه يتناسب معناها مع فعل المتصدق حيث يتصدق على المسكين بين الحين والآخر في فترات متباعدة.

وقد نص الحديث على (المسكين) دون الفقير لأن ذكر أحدهما في النص يذكر بالآخر. وأما إذا جمع ذكرهما في سياق واحد فإن هناك فرقاً بين الصنفين حيث اختلف العلماء في أيهما أشد حاجة من الآخر الفقير أم المسكين؟

والأوضح من هذه الآراء أن يكون المراد بالفقير المحتاج احتياجاً لا يبلغ بصاحبه إلى الضراعة والمذلة، وأما المسكين فهو المحتاج احتياجاً يلجؤه إلى الضراعة والمذلة، فالمسكين أشد حاجة من الفقير بسبب المذلة والضراعة عند ضعف الصبر عن تحمل ألم الخصاصة. فالمسكين يقترن بفقره، تذلل وسؤال وخضوع، وأما الفقير فهو لا مال له إلا أنه لم يذل نفسه بالسؤال والخضوع فكل مسكين فقير وليس كل فقير مسكيناً.

فالمسكين والفقير صنفان من الناس يشتركان في صفة الإقلال

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رغبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك).

هذه دعوة صريحة موجهة من رسول الله ﷺ إلى كل مسلم منفق ألا ينسى الإنفاق على هذه الأصناف الأربعة، وبخاصة الأهل، لأن الإنفاق عليهم فيه أجر عظيم، وثواب كبير، وذلك لما فيه من حصول المنفق على أجرين، أجر القرابة، وأجر الصدقة.

وكلمة (دينار) يوحي قطعها الأخير (نار) باستحضار صورة النار الحقيقية، وهذا ما يجعل المسلم يفكر دائماً بالإنفاق بصورة مستمرة ولو بشيء يسير، حتى يتقي عذاب النار يؤيد ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام (انقوا النار ولو بشق تمرة).

فكم أبداع الشاعر عندما صور الإنسان وهو معذب بين الدينار والدرهم بقوله:

النار آخر دينار نطقت به

والهم آخر هذا الدرهم الجاري

والمرء بينهما مال م يكن ورعاً

معذب القلب بين الهم والنار

وجاءت النكرة (دينار) موصوفة بالفعل، (أنفق) أي دينار منفق في سبيل الله، ودينار منفق في رغبة ودينار منفق على أهلك.

فالفعل (أنفق) مقيد بالزمن الماضي، ولكنه يفيد الحاضر والمستقبل والسر في مجيئة بصيغة الماضي للدلالة على وقوع فعل الإنفاق من المنفق وهو الإنسان المؤمن، وهذا ظن حسن من رسول الله ﷺ بالمؤمن لأن الأصل فيه أن يكون كريماً منفقاً ببذل ماله في وجوه الخير المختلفة، فالإنفاق مستمر ما دام المسلم متمتعاً بطول العمر مع قدرته على الإنفاق.

كما أن مادة الفعل (أنفق) هي (نفق) حيث تدل على معنيين أحدهما: انقطاع شيء وذهابه، والآخر: يدل على إخفاء شيء وإغماضه. فإما المعنى الأول وهو انقطاع شيء وذهابه فإنه يتناسب مع فعل الإنفاق حيث يقطع الإنسان جزءاً من ماله لكي ينفقه على الأصناف التي ذكرت في الحديث أو على غيرها من وجوه الخير الأخرى. فالصورة التي أمامنا، أي صورة ذهاب المال، وانقطاعه من صاحبه - أي المنفق - ولكنه في مقابل ذلك فإن المنفق يكسب الأجر والثواب كما أنه يكسب الخلف والتعويض من الله عز وجل مصداقاً لقوله عليه السلام (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً).

هذا إلى جانب الثناء الجميل والذكر الحميد، الذي يتمتع به المنفق

وهو قوله عليه الصلاة والسلام (دينار أنفقته في سبيل الله). ودينار تصدقت به على مسكين.

وقوله عليه الصلاة والسلام (ودينار أنفقته في رقة) ودينار أنفقته على أهلك.

فحذف المضاف (تحرير) في قوله عليه السلام (ودينار أنفقته في رقة) قد استدعاه التناسب في النظم فكل جملتين في الحديث تناسب الأخرى من حيث الطول في العبارة. فلو ذكر المضاف (تحرير) في قوله عليه السلام (ودينار أنفقته في تحرير رقة) لبقيت جملة (ودينار أنفقته على أهلك) شاذة من بين الجمل الثلاث من ناحية الطول. ولذا حذف المضاف (تحرير) من الجملة الحديثية، لكي تبقى متناسبة مع جملة (ودينار أنفقته على أهلك).

وهكذا نرى أن كل جملتين في الحديث النبوي الشريف قد وقع بينهما التناسب الذي يضيف على النص التناسق والإيقاع الجميل.

كما يوحى حذف المضاف (تحرير) في الحديث إلى الإيجاز من ناحية، وللعلم به من جهة أخرى لأنه متى ما ذكرت (الرقة) وهي دالة على العبودية في هذا السياق ذكر بالمقابل لها (التحرير) فصفة العبودية تقابل صفة التحرير وكذا حسن في هذا المقام حذف المضاف وذلك لاشتهار هذه العادة البشعة وانتشارها في المجتمع.

كما أن ذكر المضاف إليه رقة والتركيز عليه دون ذكر المضاف (تحرير) يوحى ببشاعة هذه العادة التي تستحوذ على رقاب الناس في القديم والحديث وتمنعهم من حرياتهم المشروعة التي فرضها الإسلام فالرقة رمز للحرية والعبودية رمز للذل والخضوع. أما استخدام حرف الجر (على) في جانب هذين الصنفين من الناس وهما: المسكين والأهل: (ودينار تصدقت به على مسكين). (ودينار أنفقته على أهلك).

فيعود إلى طبيعة السياق حيث نجد أن الحديث يتناول الصدقة على المسكين، والإنفاق على الأهل، والذي يناسب هذين الصنفين في هذا المقام هو حرف الجر (على) يقول أهل اللغة إن حرف الجر (على) يفيد الاستعلاء الحسي والمعنوي. ومعنى ذلك أن حرف الجر (على) يشيع على مدخوله الاستعلاء والظهور إما معنوياً وإما حسياً والذي يلحظ أن معناه قد جاء في الحديث النبوي الشريف للاستعلاء المعنوي أي (المجازي) حيث أشاع حرف الجر (على) على مدخوله (المسكين) و (الأهل) الظهور والاستعلاء. وتفسير ذلك أن الشخص المنفق إذا تصدق على المسكين فإن ذلك سيكون له أثر طيب في نفسه، إذ يشعر بالفرح والسرور والحبور. وهذا ينعكس على نفسه وعلى أهله، حيث يشعرون بالسعادة وارتفاع معنوياتهم وعلو شأنهم ومنزلتهم في المجتمع، وكذلك الإنفاق على الأهل (ودينار أنفقته على أهلك) فإن حرف الجر (على) يشيع على مدخوله (الأهل) الاستعلاء المعنوي، ومعنى ذلك أن الأسرة التي ينفق عليها معيها مما أوسع الله عليه فإنها تشعر بالأمن والأمان كما تشعر بالعز والكرامة والسعادة الهائلة والمنزلة العالية والدرجة الرفيعة.

والفاقة إلا أن المسكين يتميز عنه بالذل والمسكنة ولذا قال سيبويه (المسكين من الألفاظ المترخم بها).

ومن اللافت للنظر أن استخدامات حروف الجر في الحديث النبوي الشريف جاءت مناسبة للسياق التي وردت فيه، ففي جانب الإنفاق على الصنفين الأولين وهما (سبيل الله) و (رقة) استخدم حرف الجر (في) وفي جانب الإنفاق على الصنفين الآخرين وهما (المسكين) و (الأهل) استخدم حرف الجر (على) فما السر الذي يكمن وراء هذا الاختلاف؟

من المعلوم في الصفة النحوية أن حرف الجر (في) يفيد الظرفية والوعاء حقيقة أو مجازاً، ففي قوله عليه الصلاة والسلام (دينار أنفقته في سبيل الله) تجد أن حرف الجر (في) يفيد المجاز ومضمون ذلك أن (السبيل) وهو أمر معنوي قد تحول إلى أمر محسوس بسبب دخول حرف الجر عليه فالدينار المحسوس بالأصل قد ظرف (في السبيل) طمعاً في ادخار أجره وثوابه إلى يوم الحساب والجزاء، فحاجة المنفق إلى هذا الدينار أشد ما تكون إليه في هذا اليوم العصيب وهو يوم القيامة. وقد صدق الشاعر الأخطل، عندما أدرك قيمة الادخار للأعمال الصالحة حيث قال:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

نخراً يكون كصالح الأعمال  
وإذا نظرنا في جملة (سبيل الله) في الحديث النبوي الشريف، لوجدناها قريبة دالة على الإنفاق ينبغي أن يكون خاصاً بالجهاد والمجاهدين إلا أن هذه القرينة تتسع إلى أكثر من ذلك حيث أنها تستوعب مجالات الخير المتنوعة لتشمل جميع المصالح الشرعية العامة، وكذلك قوله عليه السلام (ودينار أنفقته في رقة) حيث نجد أن حرف الجر (في) هو المستخدم في الدخول إلى (رقة) و (الرقة) أمر محسوس ومشاهد، فالشيء المحسوس المشاهد يكون أدعى إلى سرعة استجابة المنفق في الإنفاق عليه.

وهذه الكلمة (رقة) مقصود بها الإنسان المملوك، حيث عبر عنه بلفظة (رقة) وذلك لأهمية هذا العضو في الإنسان، فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل وهذا الأسلوب يسمى عند البلاغيين بالمجاز المرسل، علاقته الجزئية لأن الجزء قد ذكر في النص وهو (الرقة). وجاءت أهمية الرقة في الإنسان لكونها موضع الإذلال من جهة وموضع الوثاق والقصاص من جهة أخرى. ومن اللافت للنظر أن الرقة قد ذكرت في الحديث النبوي الشريف دون ذكر لتحريرها، أي أن المضاف محذوف في نص الحديث والأصل (تحرير رقة) بينما نجد في أسلوب القرآن الكريم قد ذكر المضاف فمن ذلك قوله تعالى ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقة مؤمنة﴾ فما السر في ذلك؟

إن حذف المضاف (تحرير) في البيان النبوي له دلالة خاصة يتطلبها التناسب في السياق، فالتناسب بين الجمل مقصد من مقاصد البلاغة ومطلب من مطالب البيان فلو ذكرت كلمة (تحرير) في البيان النبوي لأختل التناسب بين الجمل.

وأراك تلحظ التناسب بين كل جملتين في الحديث النبوي الشريف

\* كلية التربية للبنات - الأقسام الأدبية - الرياض